إنسان نياندرتال ٤

في كهف شانيدر

بقلم : آرليت لوروا ـ گورهان[1]
ترجمه عن الفرنسية
جميل حمودي ـ معاون أمين متحف

أجريت بين سنتي ١٩٥١ و١٩٦٥ عدة مواسم للتنقيب قام بها السيد آر • سوليكي في مكانين متجاورين هما كهف شانيدر وموقع زاوي چيمي ، في شمال العراق بالقرب من الحدود التركية • وقد تم خلال تلك التنقيبات تعيين ستة عشر تاريخا بطريقة كاربون ١٤ C. 14 حددت بموجبها مختلف الصناعات في تسلسلها الزمني (ضمن العصر الجليدي الرابع) وقد صدرت نشرات عديدة فيها معلومات عن المكتشفات الرئيسة ، وخاصة الهياكل العظمية (سوليكي ١٩٦٠ ـ سوليكي ١٩٦١ ـ سوليكي ١٩٦٣) •

وقد عهد الينا ببعض النماذج من البقايا العضوية بقصد اجراء تحليل دقيق للقاحات النباتية (Pollens) • ورغم ضآلة تلك اللقاحات في طبقات شانيدر والصعوبات التي تواجهها دراسة الطبقات (Stratigraphie) في موقع زاوي چيمي ، فقد كان من الممكن التوصل الى معرفة بعض المعلومات المناخية (سوليكي ـ ولوروا ـ گورهان ، ١٩٦١) • ومع ذلك فاننا ـ أمام هذه النتائج غير المتكاملة وصعوبة وضع التفسيرات النهائية المهمة ، قد أحجمنا عن اصدار دراسة مفصلة ، بانتظار وثائق جديدة أخرى • وكنا من قبل قد اعتقدنا بوجود مكان آخر في الشرق الاوسط ، فيه نفس التتابع الزمني ولكنه قد يكون أغنى ببقايا اللقاحات النباتية ، بحيث يتسنى لنا العمل في ظروف أحسن •لكن لم يظهر هناك شيء من هذا القبيل خلال عشرة سنوات

(١) نشرة الجمعية القبتاريخية الفرنسية العدد ٣ ـ آذار ١٩٦٨ • باريس •

لسوء الحظ • وبينما اغتنت المجاميع الموجودة من اللقاحات النباتية ، وتطورت طريقة التحضير ، ظلت لقاحات شانيدر وزاوي چيمي هي الوحيدة في الشرق الاوسط التي تتصل بصناعات العصر الحجري القديم[٢] (Paléolithique) وهكذا قررنا القيام بتجربة جديدة •

يحتوي كهف شانيدر على ١٤ مترا من التراكمات الاثرية ، منها أكثر من ٨ أمتار تعود للفترة المستيرية (Moustérienne) يعلوها ما يخص الفترة الاخيرة من العصر الحجري القديم، التي تسمى هنا « بارادوستيان (Baradostien) وفوق ذلك تنفرش طبقات العصر الحجري الوسيط (Mesolithique) وما قبيل العصر الحجري الحديث ثم مزيج من الاستمرارية التي تربط العصر الحجري الحديث (Néolithique) بالعصر الحاضر • وقد دفعنا هذا التتابع الممتاز الذي يمكن معه مقارنة العصور المختلفة، الى القيام بتهيئة جديدة لجميع النماذج المتيسرة • وبعض هذه النماذج عقيم والاكثرية الاخرى فقيرة ، ولكن وجود ما يقرب من ثلاثين نموذجا جمعت من مختلف النقاط التي تشمل الارتفاع الكامل لمقطع شانيدر ، وكذلك حوزة النماذج الغنية من زاوي چيمي ، يعطينا بضعة آلاف من التفسيرات ، فكرة طيبة عن الزراعة • أما التحضيرات الجديدة التي قورنت بالنتائج السابقة وببعض التفسيرات، خاصة تلك التي تتعلق بالنخلة ، فقد أهملت بسبب غياب الادلة القاطعة • وسوف تُنشر تفاصيل كل هذا فيما بعد ، أما في هذا البحث فان الامر يتعلق بنتيجة لم تكن منتظرة أبدا •

ان كهف شانيدر كبير جدا (عرضه ٥٣ مترا وعمقه ٤٠ مترا) • ولم تشمل التنقيبات فيه الا عشر مساحته • وقد جعلت الاحجار الصخرية الكبيرة المتساقطة العمل صعبا جدا فيه بحيث كان من الضروري ، أحيانا ، أن ينجز بسرعة شديدة • والبروفسور سوليكي يستحق التقدير لانه استطاع أن يجمع النماذج مع كل ما يتعلق بها ، وهذا مهم جدا بالنسبة لهذا البحث •

ان النتائج المتعلقة بالنباتات متشابهة فيما بينها في مقطع التتابع الزمني الذي يعود لفترة العصر الحجري القديم من أعلاه حتى أسفله ، مع وجود بعض النقاط ذات الرطوبة التي تشير اليها الاشجار بصورة خاصة •

وتجدر الاشارة الى بعض التخلخل الخفيف في « مشابهات العشب (Herbacées) » ، لكن المجموع العام متلاحم متصل ببعضه البعض ، وقد تميز مع ذلك ، نموذجان ، منذ البداية ، بأوصاف خاصة : فالنباتات هي نفسها كما في أي مكان آخر ، ويمكن مقارنة طبعاتها المتحجرة ، الا أن النسب العددية تختلف كل الاختلاف عمّا في النماذج الاخرى • وقد تبيّن لاول وهلة أن هذه اللقاحات النباتية لم تصل الى باطن الارض بصورة مبعثرة ، ولكنها وضعت فيها على شكل أزهار • وبعضها ما يزال حتى الآن ملتصق

(٢) استنادا الى التحضيرات الاولى ، فقد وجدت اللقاحات النباتية في طبقة (كيباريان) في موقع جعيتا بلبنان الذي نقب فيه الأب حورز (Hours).

بالبعض الآخر بالعشرات ، وأحيانا بالمئات ، وفي التحضيرات تظهر بعض الاكمام[٣] بكاملهـــا • ويرجع الى هذه المجموعة ثمانية أنواع نبـــاتية مختلفة على الاقل • فكيف اتيح لهذه الازهار أن تغوص الى عمق ١٥ متر في أرضية الكهف ؟• ليس من الممكن أن تتصور أن ذلك حدث بواسطة العصافير ، ولا بواسطة الحيوانات القارضة ، ولا كذلك بوجود النفايات المتحجرة ، فليس هناك من امكانية أخرى للنقل يمكن التفكير بهـــا غـــير الانسان •

وقد هدف البحث الى نقطتين : تعيين المكان المضبوط للنماذج ، والتفسير النباتي (العلمي) الدقيق • والنموذجان يعـودان الى مجمـــوعة تتألف من ست عيّنات : « النياندرتال ٤ » • وقد اكتشفت حتى اليوم ثمانية هياكل عظمية نياندرتالية في شانيدر بارتفاعات مختلفة من الطبقات المستيرية Moustérienne ، فالمســـتويات ١ ، ٥ ، و ٣ بالقرب من أعلى الطبقة يؤرخهـــا كاربون ١٤ (C. 14) بـ ٤٤٠٠٠ سنة ق•م ، وعلى بعد بضعة أمتار أكّد تحليل آخـــر ٤٨٠٠٠ سنة ق•م• تاريخاً لهذا المستوى • أما انســـان نياندرتال ٤ وانسان نياندرتال ٦ فانهما أقدم ، وهما أعمق بما يقرب من مترين • والنظرية القائلة بمـــوت سكان كهف شانيدر النياندرتاليين بنتيجة انهيـار الصخور بسبب حدوث هزة أرضية ، كانت قد دعا اليها آر• سوليكي ولكنه وجد نفسه بعد ذلك أمام أمر آخر هو اكتشاف قبور ، غطيت هنـــا وهناك بالحجارة الصغيرة وفيهـــا بعض الادوات والعظام الحيوانية ، بل وحتى بعض الفحم الحاصل من حرق الخشب ، والهياكل العظمية تستقر ، كما هو الغالب ، في داخل الدائرة التي تحيط بها الاحجار • وهذا ينطبق تماما على نياندرتال ٤ (الشكل ١) ، وقد عُثر بين العظام الصغيرة التي وضع عليها بالشكل المرسوم اسم (عظام حيوانية) ، على بقايا طفل صغير وبعض بقايا عظمية تعود لما يُفترض أن يكون النياندرتال ٦ الذي لم يتم كشفه بصورة نهائية •

وقد أقلقت طبيعة أرضية هذا القبر بصورة خاصة آر• سوليكي الذي أخذ منه نماذج كثيرة• وكان الهيكل العظمي يستقرّ في القعر على أرض بنيّة اللون غامقة ، وهي أرض طينية وصلبة • بينما كانت الطبقة المحيطة والتي تغطي العظام ، عبارة عن أرض أفتح لونا وأخف ، ولم تظهر التحليلات الخاصة باللقاح والتي اجريت على ثلاثة نماذج من تراب الارضية العليا أي اختـــلاف جوهري مع ما يوجد في الطبقات التي فوق أو تحت طبقة الارض الغامقة اللون • وهذه النماذج هي أولا النموذج المرقم (٣١٥) الذي اخذ من حفرة تحت أحد الاحجار خـــارج حيز القبر قليلا ، ثم النموذجان المرقمان (٢٧١) و (٣٢٦) • وقد أخذ الثاني من على سطح الهيكل العظمي ، في نقطته المركزية ، أما النموذج المرقم (٣٢٦) فقد اخذ من نقطة أبعد الى الشـــرق ومن نفس المستوى : وكانت البقايا التي تتألف منها هـــذه النماذج قد تراكمت فوق الجثة فيما بعد وغطت العظام •

(٣) أي الاكياس التي تنشأ فيها اللقاحات النباتية •

شانيدر "٤" ـ المربع ٧ ب ـ

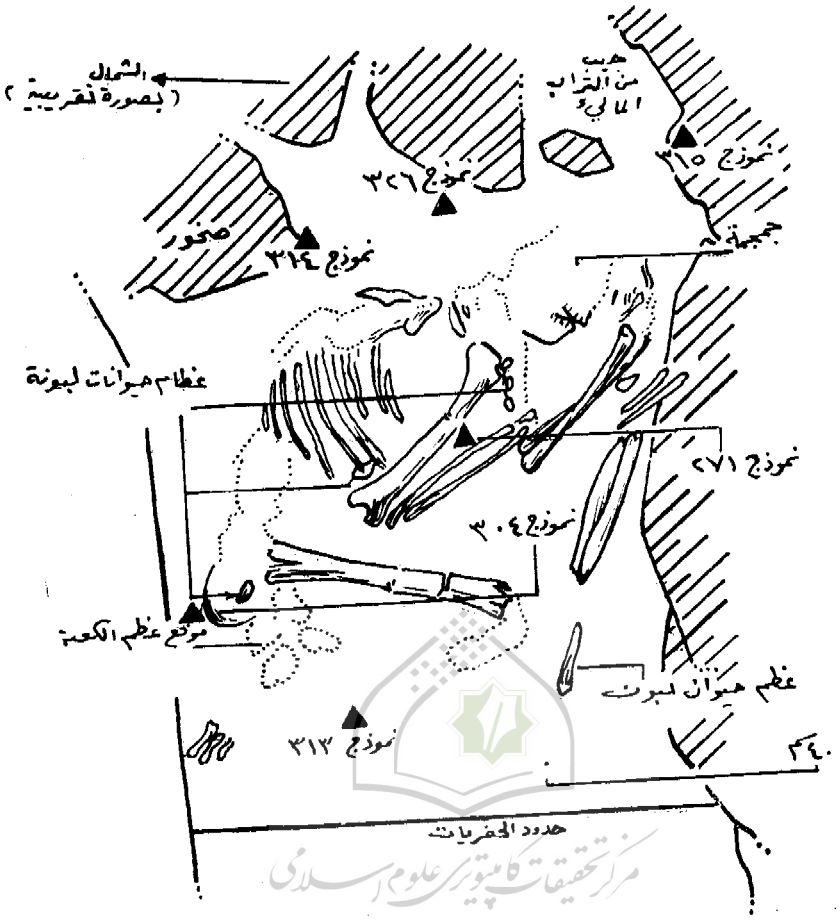

الشكل ١

والنموذجان الغنيّان بالازهار هما رقم (٣١٣) ورقم (٣١٤) ، وقد اخذا من نفس المستوى الذي كان الهيكل العظمي يستقر فوقه ، في الطبقة البنية الغامقة اللون • كما أن هناك أنموذجاً ثالثاً (رقم ٣٠٤) هو أقل غنى من السابقين الا أنه يحتوي أيضا على الازهار وخاصة من النوع المتوفر في النموذج رقم (٣١٣) • ولم يكن أبعد من ٢٥سم ، بينما كان النموذجان الآخران على جهتي الجثة يبعد أحدهما عن الآخر بمقدار ٦٨سم •

ولم يكن لبعض النباتات التي أمكن التوصل الى معرفتها غير ساق قصير • فكان لابد من وجود عدة أجناس لهذه النوعيات بحيث تحتشد أزهارها لتكوين مجموعة من اللقاحات الكثيفة في هذا المكان •

وتحتوي هذه الارضيات الرطبة القريبة من الآفاق « ذات السقوف الصخرية المتدلية » أو (الستالاكمايتية) ، على أجزاء نباتية بعضها يمكن معرفته : وهو عبارة عن قطع صغيرة من الخشب ، ولعلّه من الصنوبر ، وهي عديدة جدا• ومثل هذه الاشياء تظهر غالبا في النماذج الاخرى المستيرية ، ولكن كثرتها هنا ترجع اما الى مصدر مهم أو لمميزات خاصة في الارض لحفظها •

ان وجود كمية من النباتات تحت بقايا انسان نياندرتال ٤ ، ووجود بقايا الطفل الصغير ،

جعل من المفيد بصورة خاصة أن نتعمق في بحث التفسيرات النباتية وأن نصل بها الى ابعد حد ممكن • وقد أصبحت هذه العملية ممكنة لكثرة عدد اللقاحات النباتية ، حيث زاد في تحضيرها على الالف • وقد حقق هذه الدراسة العميقة الدكتور دبليو• فان تسايت Dr. W. Van Zeit الذي ساعدت معرفته بالزراعة في الشرق الاوسط على الوصول ، في كرونكن Groningen ، الى التفسيرات المتعلقة بالانواع الرئيسة التي وجدت على هيئة ازهار وهي :

ـــ الاخيليا ـ أو الحزنبل ـ أو أم ألف ورقة (من فصيلة نباتات الأشيليا)[٤] •

ـــ البابونج ـ وزهره أصفر اللون[٥] •

ـــ القنطريون ـ أو العرطب ـ وزهره يسمى أيضا شيخ الربيع لكثرته[٦] •

ـــ الزنبق أو السوسن الصغير (من نوع مسكاري) وزهره آزرق اللون[٧] •

ولهذه النباتات أزهار صغيرة ذات ألوان براقة ، وهذا يختلف عن النوعية السادسة وهي (الايفيدرا ـ ومعناها عَلَّد او عنب البحر[٨]) التي تكون أزهارها صغيرة جدا وهي ليست بذات أهمية تذكر ، كما أن من الصعب الوصول الى راي او تفسير معين يشرح سبب وجودها هنا ، ولكن من الممكن التفكير بانها تعود الى مفرش (خاص بالحيوانات) ، فالاعواد الكثيرة والسهلة الالتواء في هذه المجموعة النباتية تؤيد ذلك • كما أن هناك لقاحات نباتية لنوعين اخرين لم يتوصل الى تعيينهما رغم وجودهما بكثرة• ويجب الاشارة كذلك الى العدد الكبير جدا من لقاحات الخبازيات (Malvacées) رغم أنها لا ترجع الى مجموعة (الازهار) ، بل هي تعود الى فصيلة ورد القنب أو الزوان[٩] ـ وقد وجدت حتى الان ودائما بصورة متفرقة •

ان النباتات المختلفة التي ذكرت في هذا البحث ما تزال تزدهر في أعالي جبال راكروس في شهري مايس وحزيران ، لكن علينا أن ندرك أنه كان هناك اختلاف مناخي خلال العصر الجليدي (Würm) خاصة بالنسبة للارتفاع الذي يبلغه الكهف وهو ٨٢٢ متراً • وان في مقدورنا مع ذلك أن نعتقد بدقة تحليل كاربون ١٤ (C. 14) وبحقيقة اللقاحات النباتية ، وبأن انسان نياندرتال ٤ في كهف شانيدر كان قد وُضع في قبره ، قبل أكثر من خمسين ألف سنة ، بين نهاية شهر مايس وبداية شهر تموز[١٠] •

(٤،٥،٦و٧) المعجم المصور لاسماء النباتات لمؤلفه : أرمناك ك• بديقيان (القاهرة ١٩٣٦) ومعجم أسماء النباتات ، صنعة الدكتور أحمد عيسى بك (القاهرة ـ ١٩٣٠) وقاموس بيلو (فرنسي ـ عربي) ـ بيروت ١٩٦٥ ، مع الاستعانة بقواميس أخرى أهمها لاروس الموسوعي ـ وبيتي لاروس • (المترجم)

(٨و٩) المعاجم السابقة الذكر • (المترجم)

(١٠) من المؤمل أن ينشر بحث أكثر تفصيلا في مجلة (العلم) الامريكية بالاشتراك مع آر• سوليكى •

المصـــادر :

١ ـ سوليكى آر٠ اس (١٩٦٠) :

« ثلاثة هياكل عظميـــة لأناس بالغين من كهف شانيدر ـ شمال العراق » (التقرير السنوي لمعهد سمث سونيان (١٩٥٩ ـ ص : ٦٠٣ ـ ٦٣٥) ٠

٢ ـ سوليكي آر٠ اس (بالاشتراك مع لوروا ـ گورهان آرليت ـ ١٩٦٠) :

« الپاليوكليماتولوجي (أو الدراســات المناخية للعصر الحجري القـديم في الشرق الاوسـط » (التقرير السنوي لأكاديمية نيويورك ـ المجلد ٩٥ ص ٧٢٩ ـ ٧٣٩)٠

٣ ـ سوليكي آر٠ اس (١٩٦١) :

« اكتشافات انثروبولوجية جـديدة في شانيدر » (اكاديمية نيويورك ـ السلسلة الثانية ـ المجلد ٢٣ ـ ص : ٦٨١ ـ ٦٩٩)٠

٤ ـ سوليكي آر٠ اس (١٩٦٣) :

« القبتـاريخ في وادي شـانيدر ، شـمال العراق » (مجلة (العـلم) الاميركية ـ المجـلد ١٣٩ ـ العـدد ١٥٥١ ـ ص : ١٧٩ ـ ١٩٣) ٠

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی